الثقافة كوسيلة للتمكين النفسي والاجتماعي في مواجهة القمع اليومي:
تجربة سجن نابلس المركزي في سبعينات القرن الماضي

د. سامي الكيلاني

جامعة النجاح الوطنية

قبل الحديث عن هذا الموضوع وعمّا يمكن أن يورده هذا العنوان من تداعيات، لا بد أن هناك من يتساءل: ما علاقة الموضوع بتجليات تاريخ المدينة؟ تهدف فكرة إدراج هذا الموضوع في مؤتمر عن تجليات المدينة إلى هدفين أساسيين: الأول القول بأن الحركة الاعتقالية بتاريخها وما قدمته لنضال هذا الشعب من أجل التحرر من نير الاحتلال جزء لا يتجزأ من تاريخ المدينة والوطن، ويتمثل الثاني في الدعوة إلى الحفاظ على تراث هذه الحركة بكل أشكاله. وكنت وغيري الكثيرين من المعتقلين القدامى والمهتمين بهذا المجال قد دعونا إلى تحريم استعمال المكان ذاته من معتقل يديره الاحتلال إلى معتقل تديره السلطة الوطنية الفلسطينية، حتى وإن اقتصر استعماله على السجناء الجنائيين. هذا المكان يستحق أن يكون متحفاً لتراث هذه الحركة أو أي شيء مفيد إلاّ أن يكون معتقلاً. وللأسف فإن بناء السجن القديم (سجن نابلس المركزي) قد دمّر في اقتحام عسكري احتلالي غاشم، ولم تختتم حياته بهذا التغيير الذي يعطيه الحق في إزالة الوصمة عنه من معتقل لطلاّب الحرية وجعله معلماً يحتوي الإرث والتراث النضالي التحرري الذي صنع بين جدرانه وفي جنباته. الفرصة لا زالت ليأخذ سجن جنيد حقه في هذا التغيير. قبل أعوام وقبل مجيء السلطة الوطنية الفلسطينية إلى هذه المدينة، وحينما كان المحتلون يحضّرون للخروج من بين مساماتها وبضمن ذلك السجن، قرأت عن اجتماعات لما يسمى بقسم التاريخ، كما أعتقد، في جيش الاحتلال تم فيها مناقشة ما الذي يجب عمله قبل مغادرة السجون، وكان رأي هؤلاء الخبراء يتلخص بضرورة دهن الجدران حتى لا تبقى علامات السجناء وما حفروه على الجدران ليأتي السجناء السابقون مع أطفالهم وأحفادهم للزيارة والتذكر والتعليم. كتبت يومها ساخراً من هذه الرؤوس المفكرة لأقول أن طمس الجدران لا يطمس الحقيقة والإرث الإنساني الكبير لمناضلي الحرية المكبلين بالقيود بين الجدران وخلف القضبان. تنفرد جامعة القدس وفي حرمها الكائن في بلدة أبو ديس بمتحف للحركة الأسيرة، بينما نابلس التي ابتليت بسجنين في أيام الاحتلال وفي الوقت ذاته تشرفت باحتضان حركة اعتقالية أبدعت أيما إبداع من المنظور النضالي السياسي ومن منظور الصمود الإنساني لم تفكّر في تحويل أي من المكانين أو جزء من أحدهما إلى مثل هذا المعلم الذي يعكس قدرة الإنسان الفلسطيني على أن يكون حراً في روحه وإبداعه رغم أنه المقيّد بأسوأ القيود المادية.

هذه الورقة بداية لفكرة بحثية تطبق منظور النظم على مجتمع المعتقلين وما حصل في هذا المجتمع/النظام من علاقات ومواقف أدت إلى تمكين المعتقلين أفراداً وجماعات وحركة تمثل مجتمعاً محلياً بالمفهوم المهني للتعبير.

تنظر نظرية النظم (Systems Theory) عامة والمنظور الإيكولوجي خاصة، وتطبيقاتها في الخدمة الاجتماعية، إلى المجتمعات ومنها المجتمعات المحلية والجماعات الصغيرة والعلاقات التي تدور فيها كنظم (أو أنساق) اجتماعية وتهتم بدرجة انفتاحها أو انغلاقها، وذلك لتوصيف وتفحص ما يجري فيها من ممارسات وعلاقات ونتائج ذلك. وتستخدم هذه النظرية مفاهيم التدفق في الطاقة من وإلى النظم للتعبير عمّا يجري بداخلها والتغيّرات التي تحصل. وعند استخدام مفهوم مثل مفهوم التمكين(empowerment)، فإنه يمكن النظر إلى عملية التمكين كحصيلة إجمالية لما حصل عليه الفرد أو الجماعة أو المجتمع المحلي من الطاقة سواء أكانت داخلية المنشأ (كما في التمكين النفسي) أو خارجية المنشأ (كما في التمكين الاجتماعي). فالتمكين يمكن أن يحصل على المستوى الفردي أو على مستوى الجماعة أو المجتمع المحلي،

وعند كل من هذا المستويات يمكن النظر إلى هدف التمكين (target) كنظام مستقل (ليس بمعنى معزول) تجري فيها عمليات مركبة تتأثر بالمدخلات التي تدخل إلى النظام والمخرجات التي تخرج منه والتغذية الراجعة التي تعود إليه من هذه المخرجات، ونتيجة لهذه العمليات وعلاقتها بالعناصر الأخرى تتحدد حالة النظام العامة.

يمكن النظر إلى المعتقلين كمجتمع محلي من نمط مجتمع الحاجة أو الاهتمام (Interest community) إضافة إلى كونه مجتمعاً محلياً مكانياً (Locality community) حيث يقيم أفراده في مكان محدد قسراً. وقد يبدو هذا المجتمع المحلي نظاماً أو نسقاً مغلقاً إلى درجة كبيرة إذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف المادية فقط، إلاّ أنه يمكن أن يصبح مفتوحاً إلى درجة كبيرة من الناحية المعنوية نتيجة لعوامل الصراع الدائر في داخله وفي مقدمة هذه العوامل عامل الإرادة الإنسانية وما يحشد من قبل أفراد هذا المجتمع من جهود وما يصمم من علاقات لجعل الغلق المادي أضعف بدرجات من الانفتاح المعنوي. عالم ينظر إليه المنتمون إلى طرف السجان أو الذين يجهلون المجريات والعمليات اليومية التي تدور في داخله كعالم مغلق بطبقات متعددة من الأسوار المادية التي يعتبر الخروج من أضيقها (الزنزانة الانفرادية) إلى سور أقل ضيقاً على كالغرفة الجماعية أنه "نعمة"، بينما يعتبر الأمر مختلفاً تماماً بالنسبة للسجناء الذين يؤمنون بالقضية التي ضحوا بحريتهم من أجلها. وقد تجسّد ذلك في الحوار الذي دار مرة بيني وبين أحد "الزوار" الذين كانوا يأتون للحديث مع السجناء بصفة طلبة جامعات، والمعتقلون يعتقدون أنهم ضباط مخابرات متدربون. استدعاني أحدهم، وسأل عن رأيي السياسي. كنت قد اتخذت موقفاً يطرح مقاطعة هؤلاء الزوار غير المرغوبين. أجبته بهدوء: "نحن الآن غير متساوين للحديث عن الآراء، أنا سجين من أجل رأيي وأنت طليق ولا يهمني من تكون، فلا منطق في الحوار ونحن بهاتين الصفتين". سألك هل أنت خائف من تبعة ما ستقول وطمأنك أنك حر في قول ما تريد ولن تتضرر. كنت حازماً في الرد "تاريخ إفراجي يوم كذا انتظرني على باب السجن وسأخبرك برأيي حتى لو كان ثمن ذلك عودتي للسجن". حاول المراوغة "على الأقل أنت تخرج من غرفة ضيقة إلى هذه الغرفة الواسعة المكيفة، لحظة استراحة من الغرفة الضيقة اعتبرها". أجبته "أنا لست في غرفة ضيقة، أنا أجوب العالم يومياً من خلال قراءاتي".
وفي هذا "النظام" تدور بين السجين والسجان معركة صامتة بين طرفين واعيين: السجين الواعي لرسالته الوطنية-الاجتماعية الإنسانية، والسجان الواعي لخطط مؤسسته القمعية التي تعمل وفق برنامج لئيم مخطط. تدور المعركة تحت سطح المياه اليومية الساكنة ظاهرياً، أو يمكن تشبيهها بجبل جليدي لا يبدو منه سوى رأسه المتمثل بالمواجهات المادية بين قمع أجهزة السجون كالاقتحام والاعتداءات على السجناء أفراداً وجماعات، وما يقابلها من الخطوات المطلبية النضالية. الحجم الأكبر لهذا الجبل الجليدي يتمثل في خطة لهزيمة الإنسان داخل السجين وجعله يائساً تمهيداً لإجباره على الانسحاب من المعركة والدخول في قوقعة الذاتي المحض، وعلى الطرف الآخر عمل نضالي دؤوب يهدف إلى إفشال هذا المخطط بالحفاظ على إنسانية السجين وقيمه لكي يبقى أداة للمعركة الكبيرة الحاسمة بين الظالم والمظلوم. وتتناسب الأدوات التي يستعملها كل طرف مع طبيعة مهمته ورسالته: رسالة إنسانية مقابل رسالة لاإنسانية، والأصح أن نقول يفترض أن تتناسب لأن هناك خروجاً فردياً عن ذلك في الطرفين.

ويعتبر سجن نابلس المركزي نموذجاً متميزاً لهذا الواقع/ النظام من حيث عمر التجربة وتراكمها ومن حيث العدد ودرجة تنظيم الحياة الداخلية للسجناء، مما يكسب دراسة تجربته أهمية خاصة. ويعتبر العمل الثقافي بمعناه الواسع وبتنوعاته ميداناً أساسياً من ميادين هذه المعركة. ويمكن وصف هذا الميدان بعمومية بأنه مساحة صراع تتمثل في حصار يفرضه السجان محاولاً قطع السجين عن ثقافته الإنسانية ومصادرها، ويقابل هذا الحصار فعل ثقافي، متدرج المستويات والأشكال من اليومي المسموع إلى المنظم المكتوب، يعمل على إفشال هذا الحصار.

تستند هذه الورقة إلى تجربة ذاتية كانت جزءاً من تجربة جمعية أثمرت حركة ثقافية نمت وترعرعت خلف القضبان، ويمكن وصفها بالمقاومة برسالتها وأدواتها، والمزدهرة، بالمطلق أحياناً وبالنسبي أحياناً، وذات وجه إنساني مشرق ينبغي الاعتزاز به والالتفات إليه بمزيد من الدراسة والتعمق في البحث عمّا تعكسه من حياة الناس الذين تخصهم.

من منظور النظم، علينا أن نحدد مصادر الطاقة التي تتفاعل في النظام وتفاعلات واتجاهات انسياب الطاقة، البناءة منها والهدامة، وبالتالي المحصلة النهائية لهذه التفاعلات وما ينجم عنها من تمكين النظام أو زيادة حيويته، أو من تراجع مؤقت للنظام أو تراجع دائم يقود إلى موات النظام. في هذا الإطار يمكن الحديث بعجالة عن مصادر كل نوع من نوعي الطاقة في واقع الحياة الاعتقالية دون التعمق في تفاصيل كل منهما، وذلك بالتطرق إلى أشكال العمل الثقافي والتربوي التوعوي في حياة المعتقلين وردود فعل إدارة المعتقل المخططة للرد على هذا الفعل الدؤوب المتحدي.

أولاً- مصادر الطاقة البناءة

يمكن القول أن الطاقة البناءة التي تساعد النظام على التطور الحيوي الإيجابي تأتي من مصدرين رئيسين: أولهما طاقة تنبع من الخارج تتمثل في الدعم المباشر وغير المباشر الذي يتلقاه المعتقلون من أسرهم ومن التشكيلات الاجتماعية والسياسية، وثانيهما طاقة تنبع من داخل المعتقل تتمثل في تنظيم الحياة اليومية للمعتقلين وفي الصدارة منها الحركة الثقافية داخل المعتقل. وغني عن القول أن الطاقات القادمة من النوعين تتفاعل وتتآزر في تأثيرها، مما يمكننا من تشبيه الطاقة القادمة من الخارج بالظاهرة الليزرية (نسبة إلى اللازر)، حيث تدخل الأشعة إلى نظام من عاكسين متقابلين وتبقى تتردد بينهما وتتراكم طاقتها إلى درجة طاقة تمكّنها من الخروج كشعاع مركز الطاقة قادر على الانتقال مسافات دون تشتت.

وفي المجال الثقافي كأحد المصادر النابعة من الداخل نورد الأمثلة التالية على مصادر الطاقة، والتي يمكن الحديث مطولاً عن كل منها والتي تحتاج إلى دراسة أو دراسات في جوانبها المختلفة ومن زوايا مختلفة تربط الثقافي بالاجتماعي وبالسياسي، على أمل أن تتطرق إليها الدراسة التفصيلية التي تشكل هذه الورقة خطوطها العامة:

1. الجلسات التثقيفية في الفكر السياسي والتنظيمي، وهي عادة خاصة بالتنظيمات ومقدمة لأعضائها، وقد ساهمت بإعداد قيادات وطنية كان لها أدوار بارزة في الحياة السياسية الفلسطينية في مختلف المراحل.

2. الجلسات الثقافية العامة المشتركة لجميع المعتقلين في الغرف الاعتقالية والتي تتضمن قراءة ومناقشة تعميمات حول جوانب في الحياة الاعتقالية وبعض المواد الإخبارية التي تصل رغم الحصار بطرق مختلفة أو تترجم من مصادر إعلامية عبرية أو إنجليزية تصل بطرق مختلفة.
3. الأنشطة الثقافية الاجتماعية كأمسيات يتحدث فيها معتقل أو أكثر عن قراهم أو مدنهم الحالية أو قبل الهجرة أو مخيماتهم، وتتضمن قراءات مواد أدبية ومسابقات سين جيم.
4. صحافة اعتقالية مكتوبة بخط اليد وبنسخ توزع على مختلف أقسام المعتقل. وكانت هذه الصحافة تتمثل في نشرات قصيرة أسبوعية وفي مجلات شهرية تصدر عن التنظيمات الرئيسية، وتحوي مواد سياسية وفكرية وثقافية وأدبية.
5. ترجمات منتظمة ذات طابع سياسي إخباري موسع أو تحليلات إخبارية موسعة، مختلفة عن ترجمات الأخبار القصيرة العابرة. كما شملت ترجمات لكتب ومواد أدبية منتقاة.
6. إنتاج أدبي من الشعر والقصة القصيرة والرواية.
7. تشجيع القراءة وحث المعتقلين على طلب الكتب من أهاليهم في الزيارة عندما أصبح ذلك مسموحاً بعد سلسلة طويلة من النضالات المطلبية، وكانت التنظيمات تنسق فيما بين أعضائها طلبات الكتب للمساهمة في بناء المكتبة الاعتقالية وإثرائها. وفي إطار تشجيع القراء كانت تعقد حلقات لنقاش بعض الكتب.
8. استغلال حركة التنقلات بين المعتقلات لتزويد المكتبة العامة والمكتبات الخاصة بالتنظيمات من خلال الاستنساخ اليدوي لكتب متوفرة في سجون معينة داخل الخط الأخضر وغير متوفرة في سجون الضفة الغربية.
9. الاحتفال بالمناسبات الوطنية بالخطابات والفعاليات الثقافية كإلقاء الشعر الوطني وتمثيل المسرحيات.
10. الأعمال الفنية اليدوية والتي لا تشغل عن الجلسات والتثقيف.

ثانياً- مصادر الطاقة الهدّامة

تتمثل هذه المصادر بإجراءات إدارة السجون ومن خلفها أجهزة المخابرات الاحتلالية، والتي تهدف إلى تفتيت جبهة الحركة الاعتقالية ومحاولة اختراقها وبث الروح الانهزامية فيها. وتنوعت هذه الإجراءات في مختلف نواحي الحياة، كتشتيت الحياة الداخلية التنظيمية وحرمان المعتقلين من الاستقرار النفسي عن طريق التنقلات المفاجئة، والتفتيشات المفاجئة، ومحاولات الاختراق الأمني، ومحاربة روح التضامن ومنع المظاهر الجماعية كالكنتينا الجماعية في الغرف، ومهاجمة الاحتفالات الداخلية والأنشطة الجماعية داخل الغرف...إلخ. أما في المجال الثقافي فقد كان أبرز هذه الإجراءات:

1. الحصار الثقافي ومنع الحصول على الكتب حتى فترة متأخرة، ثم حصر ذلك بقوائم معينة تحتاج لموافقة، ثم الرقابة والتدقيق على الكتب المحضرة من قبل الأهل ورفض غير المرغوب منها.
2. االحصار الإعلامي حتى فترة متأخرة بوجود بث إذاعي من راديو إسرائيل عبر سماعات في الغرف ولساعات محددة تشمل نشرات الأخبار والتقارير الإخبارية، وذلك قبل الاضطرار للسماح بإدخال راديو الترانزستور والتلفزيون كنتيجة للنظال المطلبي. وينطبق الأمر ذاته على الصحافة.

3. استهداف ومصادرة المجلات الدورية المكتوبة بخط اليد باعتبارها تعكس أفكار الحركة الاعتقالية
4. مصادرة الكتب المنسوخة والكراسات التثقيفية والمواد الأدبية التي ينتجها المعتقلون.
5. منع الاحتفالات ومهاجمتها.